على هامش معالم التقريب *

مخاطر عبادة القوة

القارئ لمحمد عبد الله محمد، يلفته سعة وموسوعية علمه، وعمق تفكيره، وقوة عارضته، وغوصه فى كل ما يعرض له .. فلا يغره فى عالم اليوم ما يمتلئ به من العلوم ويحفل به من الاكتشافات والاختراعات، وإنما يرى أنه يغرق لأن معقد الأمل والرجاء ليس فى العلم أو الاختراع بذاته، وإنما المهم أن يكون الناس جديرين بما تم تحصيله من العلوم أو تحقيقه من الاكتشافات والاختراعات . وهذه الجدارة مقيسة بوجوب فهم أن هذه الإنجازات لا جدوى حقيقية منها إلا بما تحققه من نفع أو تؤدى إليه من خير.

فهذه المنجزات قد تكون نعمة كما قد تكون نقمة . وذلك مرهون بقدر تصرف الناس فيما صار فى متناولهم من علم وما حققوه من ابتكارات أو اختراعات . فالحياة تقوم على توازن بين قوى متعارضة، وغفلة الناس عن هذا الناموس الإلهى تقطع الطريق على ترقيهم، ويمكن لهذه الغفلة أن تجعل أعظم مكتشفاتهم وبالا عليهم ! وخذ مثالا لذلك ما يمكن أن تؤدى إليه اكتشافات الطاقة النووية من احتمالات تتأرجح بين النفع والاستفادة من هذه الطاقة فيما يعود بالخير والنماء على البشرية، وبين الهلاك الذى يمكن أن يلحق بكوكبنا كله نتيجة الحمق والتعصب وانفلات وعماء استعمال هذه الطاقة للتدمير !

---

* العالم ٢٠١١/٣/١٠

ويبدو لمحمد عبد الله محمد، أننا كمسلمين لم نحدد بعد موقفنا من القوة التى صارت معشوقة عالم اليوم. وهو يعنى بالقوة هنا - القوة المعنية بالسيطرة والتسلط على حياة ومصائر الآخرين، والقدرة على تحريك الأشياء والأشخاص . فالقوة بهذا المعنى عارض كثيف يعترض طريق التقريب، يحدث ذلك حين يقع الفرد أسيرا لهذا العشق للقوة. وقد صار معظم الناس مشغوفا بها إلى حد العبادة، فيتسابق الجميع إلى نولها - أفرادا ودولا - دون التفات إلى ما ينبغى أن يحكمها من توازن هو الضابط لعدم حموح الأقويا،، وهذا الحموح وبال على العالم بعامة، وعلى الدعوة إلى التقريب بخاصة !

والبعض منا يحلو له أن يقحم الإسلام - دون أن يشعر - فى هذا الاشتهاء للقوة، وأن يطلب أن يكون الدين سبيلا لمنحا السيطرة والتسلط على حياة الآخرين ومصائرهم . وهذا الطلب أو السعى - ما هو إلا إشباع لشهوة التفوق وإخضاع الآخرين. وليست القوة بهذا المعنى الذى يتجه إلى الاستعلاء والإخضاع - ليست هى غاية الإسلام، بل ليست فى مقدوره، لأن هذا "الإخضاع" نقيض وصد عبوديتنا لله وولائنا له عز وجل .

المسلم السوى يطلب الله وحده، ولذلك فهو يطلب الحق والعدل ولا يشتهى ولا يمكن أن يشتهى القوة الباطشة التى تخضع الغير أو تمتهنه أو تذله أو تبغى السيطرة والهيمنة عليه. إذ فارق بين ما يؤدى إليه الاتجاه إلى الله من قوة داخلية إزاء من يتهالكون على الأشياء وعلى طلبها، وبين من يسعون إلي القوة للاستعلاء والهيمنة .. فقوة الإيمان وصدق التوجه إلى الله - قوة مفروضة نابعة من صدق هذا الاتجاه، إزاء من لا يرون الحق ولا يطلبون الله .

فنعمة الإبصار ليست فى فضل المبصر على الأعمى، ولا فى قوة المبصر بالقياس إلى ضعف غير المبصر وعجزه، وإنما نعمة الإبصار

فى "ذات الرؤية" وفى الإحساس الثمين بمعجزة الإبصار وملامسة العالم بأجنحة نور هذه الرؤية وإمتاع القلب والعقل بآية النظر.

ينبهنا محمد عبد الله محمد إلى أننا كمسلمين - لا نطلب الله لإذلال الآخرين بالقوة المادية الذاتية الفردية أو الجماعية .. فالله سبحانه وتعالى ليس أداة - جل شأنه - نتوسل بها إلى شيء وراء ذاته عز وجل .. وإنما نطلبه ونتجه إليه بصدق وإخلاص لأننا محتاجون إليه لنحيا حياة حيرة عادلة .. محتاحون إليه حاجة لا يدخرها لنا غيره سبحانه، ولا يشبعها سواه عز وجل، ولأن حياتنا بدونه - تبارك وتعالى - ينقصها الجد والمعنى والغاية، ولأننا حين نطلب شيئاً آخر وراءه - لا نعود نرى النور المصاحب للاتجاه الصادق إليه، ومن ثم نسدل العتامة على أرواحنا ونطمر حريتنا فى تراب الشره والكبر والتوجس !

أحياناً ما تأخذنا الأمجاد التى حققها المسلمون، فننسى أنها أحداث فى طريق الإسلام، وليست هى الإسلام ذاته، بل إن الإسلام أكبر وأبقى من هذه الأحداث .. إننا ننسى حين يأخذنا التعلق بالأحداث أو الأمجاد - ننسى أن الإسلام اتحاد فى الله يتجاور كل الحدود السياسية والثقافية، لأنه اتحاد فى الحق من أجل الحق والهداية .

تكمن جذور انحراف الفهم، فى ثقة الناس بالقوة المستندة إلى الأشياء، وعدم أو قلة ثقتهم فى الفهم .. ومن تصورهم تبعاً لذلك أنهم يستطيعون أن يغيروا ضعف أو شقاوة الحاضر والمستقبل عن طريق القوة وليس عن طريق الفهم والجد . لو أحب الناس الفهم والجد حبهم للقوة - لتغير حالهم مع الله ولأمكنهم حل جميع مشاكلهم.

إننا قليلاً ما نتأمل معنى اعترافنا بالله عز وجل، ومعنى ألاَّ إله
لا الله بالنسبة لنا . نعم نحن نعترف بالله طول الوقت، ولكننا
حدد له عز وجل ـ دون أن ندرى ـ موضعا على هامش واقعنا
بعيداً عن مركز هذا الواقع وجوهره . ربما كان مرد ذلك أننا وإن
فكرنا فى الله عز وجل فى صلواتنا وصومنا وحجنا، إلا أننا لا
ندخله ـ تبارك وتعالى ـ فى تصورنا وعزمنا .. لأننا غالباً ما نفكر
على وجه ونفعل على وجه آخر. وعند ذلك يحدث الانقطاع أو
الانفصال بين عقائدنا وأفكارنا، وبين الإرادة والعزم والفعل الذى
تجسد فيه الإرادة والعزم، وهذا يؤدى فى حياة الكثيرين إلى نوع
من التمثيل أو الادعاء أو عدم الجد، ويلفتنا كثيراً عن تنمية الإيمان
الذى هو أولا وأخيراً أمل وثقة، ويصاحبه اعتقاد جازم بأن حياة
الإنسان فى الله، كانت وستبقى فى الله بعد زوال كل ما يصاحب
حياة الفرد من حمق ونشاز . إن الإمساك بحبل هذا الإيمان ـ هو
أهم معالم التقريب .